العمق السياسي
بين الدولتين النورية والصلاحية وأثرها
في مجرى الأحداث السياسية

م. م. شفان عادل مصطفى خضر

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

((العمق السياسي بين الدولتين النورية والصلاحية وأثرها في مجرى الأحداث السياسية))

م. م. شفان عادل مصطفى خضر

العراق ــ نينوى

Shvanadel318@gmail.com

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مقدمات تاريخية:

نبذة عن الأوضاع السياسية في العصر الزنكي:

كانت بلاد الشام منذ دخولها الاسلام قد خضعت لسلطة الكثير من الدويلات والامارات التي تعاقبت على حكمها، والتي اتسمت بالصراع السياسي والعسكري والذي أدى بدوره إلى إحلال الضعف والانقسامات بين الأطراف المتصارعة، فكانت نتيجة تلك الصراعات إفساح المجال أمام القوى الصليبية لغزوها، وقد كان السلاجقة [1] إحدى تلك القوى التي سيطرت على أجزاء واسعة من بلاد الشام.

وقد بلغت السلطة السلجوقية أوج قوتها عندما دخل السلطان السلجوقي الب أرسلان [2] إلى مدينة حلب سنة (463هـ / 1070م) بعدما جعل طريقه على ديار بكر، ومّر على آمد ثم الى الرها فحاصرها و لم ينجح بالسيطرة عليها [3] وعندما قدم حلب محاصرًا لها وفيها الامير محمود بن نصر بن صالح بن مرداس (457 - 468هـ / 1064 - 1075م م)، واستمر حصاره لها إلى ان خرج اليه محمود مع والدته فأنعم عليه وملكه اياه، وسار إلى القائد البيزنطي ديو جانس [4] الذي كان قد خرج من القسطنطينية، فالتقاه في موقعة ملاذ كرد (463هـ / 1070م)

وانتصر عليه وهزم جيشه وغنم معسكره وأسره ثم منّ عليه واطلق سراحه، وقيل: ان أهل مملكته قتلوه لأمور

---

(1) السلاجقة: ينتسب السلاجقة الى قبيلة قنق التركية والتي استقرت في بادئ الامر ببلاد ما وراء النهر اي سهول تركستان خلال القرون الثاني والثالث والرابع والتي هاجرت من موطنها الأصلي نحو مناطق آسيا الصغرى بسبب العوامل الاقتصادية بحثًا عن الكلأ والمراعي والاستقرار واعلنوا قيام دولتهم بشكل رسمي بعد انتصارهم على الغزنويين سنة (429هـ / 1037م) بقيادة طغرلبك، ثم انقسم السلاجقة بعد ذلك إلى سلاجقة الروم وسلاجقة العراق وسلاجقة الشام. البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، 5 - 10؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، 2 - 6.

(2) الب أرسلان: هو محمد بن داود جغري بك بن ميكائيل بن سلجوق، ولد في (424هـ / 1032م) وتوفي عاشر ربيع الأول (465 هـ / 1072م) بعمر الأربعين وبضع شهور، ودفن عند أبيه في مرو، وحكم للمدة (455 - 465هـ / 1063 - 1072م). ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 8 / 231.

(3) ابن الأثير: الكامل، 8 / 222؛ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، 5 / 4.

(4) ديو جانس: ويعرف بأرمانوس ديو جانس، وهو القائد البيزنطي الذي كان كثير الاعتداء على بلاد الشام لاسيما في سنة (460 - 462هـ / 1067 - 1069م) فوجد الب أرسلان الفرصة مواتية للتخلص من خطره، إذ انتصر عليه في معركة ملاذ كرد سنة (463هـ / 1070م)، فأطلق سراحه شرط أن لا يتعرض لبلاد المسلمين، لكن أهل ملته قتلوه بعد ذلك. ابن الأثير، الكامل، 8 / 223؛ ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، 4 / 1972 - 1973.

نقموها عليه، وكان الب ارسلان أول من ذكر على منابر بغداد وقيل له السلطان العالم [1].

وعندما خرج السلطان الب ارسلان أوصى بالسلطنة لابنه ملكشاه (465 - 485هـ / 1072 - 1092م) الذي كان معه وأمر أنْ يحلف له العسكر فحلفوا جميعًا وأرسل ملكشاه إلى بغداد يطلب الخطبة له، فخطب له على منابرها لإضفاء الشرعية لحكمه وكان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو القائم بأمر الله (422 - 467هـ / 1030 - 1074م) [2].

وبدأ الصراع داخل الأسرة السلجوقية نتيجة الانقسامات المتكررة، وانقسام السلاجقة إلى ثلاثة أقسام وهم، سلاجقة العراق وسلاجقة الشام وسلاجقة الروم، وأدى ذلك الى ظهور نظام جديد أطلق عليه نظام الأتابكيات [3] وكان يطلق على هذه الأتابكيات اسم أتابك، وبعض هذه الوحدات صغيرة جدًا لا تتعدى حدودها مدينة أو قلعة.

وبعد وفاة السلطان ملكشاه سنة (485هـ / 1092م) [4] تفككت الدولة السلجوقية أكثر وبدأت ملامح الانهيار تدب في أوصالها لاسيما بعد الصراع على السلطة بين أبنائه كل من بركياروق (487 - 498هـ / 1094 - 1104م) الابن الاكبر وأخيه الأصغر محمود، وكان لكل منهم مؤيدين إذ كان أتباع وأفراد أُسرة نظام الملك ابو علي الحسن بن اسحاق الطوسي (ت 485هـ / 1092م) يؤيدون بركياروق [5]، في حين أَن محمود كانت أُمه تركان خاتون [6] تقف الى جانبه والوزير تاج الملك الشيرازي [7] الذي خلف نظام

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 8 / 223؛ ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، 4 / 1971 - 1973؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 2 / 229.

(2) ابن الأثير، الكامل، 8 / 223.

(3) الأتابكيات: مفردها أتابك، هو الذي يربي أولاد الملوك، أتا بالتركية بمعنى (الأب) وبك بمعنى (الأمير) اي الامير الوالد، فكان زنكي عندما تقلد الموصل سلم اليه السلطان محمود ولديه ألب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما فلهذا قيل له أتابك؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، 2 / 328.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، 224؛ عاشور، مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، 8.

(5) ابن الأثير، الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل، 9؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5 / 71.

(6) تركان خاتون: وهي ابنة طفغاج خان، وهو من نسل إفراسياب التركي، وتلقب تركان خاتون بخاتون الجلالية، وتوفيت سنة (487هـ / 1094م) عندما سارت إلى أصبهان للاتفاق مع تاج الدولة تتش، لكنها مرضت وماتت، وكانت قد أوصت الامير أُنر والأمير سرمز بحفظ مملكة أصبهان لإبنها محمود. ابن الأثير، الكامل، 8 / 386.

(7) تاج الملك الشيرازي: هو أحد أهم وزراء تركان خاتون، وكان حسن الرأي، لذا جعلته تركان خاتون مدبرًا للجيوش بعد وفاة السلطان ملكشاه، وهو الذي خلف نظام الملك في ذلك، وأصبح يرتب أمور العمال وجباية الأموال وتأييد ابنها محمود ضد بركياروق،

الملك، وبذلك انقسم السلاجقة الى فريقين متنازعين كل منهما يجاهر بالعداء للآخر من أجل الوصول لعرش السلطنة [1].

وفي سنة (491هـ / 1097م) كان الصليبيين يتجهزون لحملة صليبية لغزو بلاد الشام، فتمكنوا من الاستيلاء على أنطاكية في السنة نفسها، ثم الرها وبيت المقدس، وبذلك كان لهم ما أرادوا عن طريق إسقاط العديد من الامارات الاسلامية وأهمها أنطاكية التي لم تنجدها بقية القوى الاسلامية لمواجهة الخطر الصليبي، فتحرك قِوام الدولة كربوقا [2]، بذلك عندما سمع باستيلاء الصليبيين على انطاكية فجمع قواته وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق وأنضم إليه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب، كما انضم اليه العديد من القادة وابرزهم دقاق بن تتش وطغتكين أتابك [3]، فلما سمع الصليبيين عظمت المصيبة عليهم وخاصة عندما نقص القوت والمأكل عندهم منذ إقامتهم بأنطاكية وكادوا يسلمون أنطاكية للمسلمين الاّ أن كربوقا قد أخطأ عندما منع اصحابه من الانقضاض عليهم وذلك عند خروج الصليبيين من المدينة متفرقين فقتل عدد من المسلمين على اثرها بسبب سياسة كربوقا من خلال الاستهانة بهم والاعراض عنهم اولًا، ومنعهم من قتل الصليبيين ثانيًا، فتمت الهزيمة عليهم [4].

وهكذا استمرت الأحداث في بلاد الشام دون وجود قيادة قوية موحدة تعمل على ايقاف المد الصليبي ومواجهته الى أن برز على المسرح السياسي عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر (521 - 541هـ / 1127 - 1146م) مؤسس الامارة الزنكية في الموصل سنة (521هـ / 1127م) [5] والذي سيأتي ذكره فيما بعد.

قتله جنود بركياروق سنة (486هـ / 1093م) وفصلوه أجزاءً وحملت إلى بغداد إحدى أصابعه. ابن الأثير، الكامل، 8 / 363 - 364.

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5 / 71.

(2) قوام الدولة كربوقا: وهو من ابرز قادة السلاجقة، تمكن من السيطرة على الموصل سنة (489هـ / 1095م) بعد ان قضى على الدولة العقيلية فيها، وتوفي سنة (494هـ / 1100م). ابن الأثير، الكامل، 8 /402 - 403.

(3) طغتكين أتابك: هو صاحب دمشق واحد غلمان تاج الدولة تتش بن الب ارسلان، وكان من أخيار الأتابكة وأعدلهم وأكثرهم جهادًا ضد الصليبيين إذ انتصر عليهم اكثر من مرة وكسر شوكتهم، وتوفي سنة (522هـ / 1128م)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 16 / 279 - 280.

(4) ابن الأثير، الكامل، 8 / 418 - 419.

(5) ضيف، عصر الدول والامارات في الشام، 27 - 28.

ولما قتل قسيم الدولة آق سنقر [1] سنة (487هـ / 1094م) على يد تاج الدولة تتش في حلب[2]، و لم يخلف من الأولاد الا واحد وهو عماد الدين زنكي وكان حينها صبيًا له من العمر نحو عشر سنين فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه وعَظم شأنه وهو في طاعة ركن الدولة بركياروق [3]، وما أن ملك كربوقا نصيبين ثم الموصل التي قضى فيها على الدولة العقيلية سنة (489هـ / 1095م)، ثم ملك ماردين ايضًا، وبعدها أمر أصحابه بإحضار عماد الدين زنكي وقال: ((هو ابن أخي وانا أولى الناس بتربيته)) [4].

وهنا يبرز دور القائد عماد الدين زنكي الذي ينتمي إلى قبائل (الساب يو) التركية [5]، الذي وقف منذ وقت مبكر بوجه الغزو الصليبي لّما أظهره من شجاعة فائقة حتى أصبح يعرف في عساكر العجم بزنكي الشام [6]، ونتيجة لتلك الجهود أصبح لعماد الدين مكانة خاصة في أرجاء الدولة السلجوقية استمرارًا لما كان لوالده من المكانة السامية لدى السلاجقة من الناحية السياسية والعسكرية والادارية [7].

بعد أن استقر عماد الدين في الموصل وتثبيت قواعدها وأقطع الجنود والعساكر توجه نحو تأمين بعض حدود إمارته، كجزيرة ابن عمر [8] فحاصرها وبها بعض مماليك البرسقي فامتنعوا من التسليم، فراسلهم عماد الدين وبذل لهم أموال كثيرة على ان يجيبوه فلم يجيبوا، وعندها عمد زنكي لفتحها عنوة، فلما سمع أهلها بكثرة عسكر عماد الدين استسلم أهلها فدخلها جنوده وعلم الناس إنّ ذلك بداية سعادة، وإنّ أمر هذه الدولة لعظيم [9].

وبعد ذلك فكر عماد الدين في توحيد الجبهة الاسلامية من خلال السيطرة على مدينة حلب بعد أن عظم موقف الصليبيين فيها واستضعفوا اهل البلاد الشامية وتابعوا غاراتهم عليها، فلما سمع أهلها بعماد الدين راسلوه

---

(1) آق سنقر: هو الحاجب التركماني الملقب بقسيم الدولة ومن إحدى القبائل التركية المعروفة (ساب يو)، وكان له الدور الكبير في تثبيت الدولة السلجوقية لاسيما في عهد ملكشاه الذي استطاع أن يفتح عددًا من المدن وأهمها حلب الذي تولى حكمها سنة (479ه / 1086م)، ودخل بعدها في صراع مع تتش أدت إلى مقتله. ابن الأثير، الكامل، 8 / 378 - 379.

(2) ابن الاثير، الباهر، 15.

(3) ابو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، 103/1.

(4) ابن الاثير، الباهر، 16؛ ابو شامة، الروضتين، 1 / 103 - ـــ 104؛ ابن واصل، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، 1 /28.

(5) خليل، عماد الدين زنكي، 31.

(6) ابن الاثير، الباهر، 19؛ ابو شامة، الروضتين، 1 / 106.

(7) خليل، عماد الدين زنكي، 35.

(8) جزيرة ابن عمر: بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة ايام (مسافة 124.5 كم تقريبًا)، ولها رستاق مخصب من الخيرات، ويقال ان اول من عمرها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي، وهي أحد المدن التي تقع بالغرب من ديار بكر، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 2 / 138).

(9) ابن الاثير، الباهر، 36؛ ابو شامة، الروضتين، 1 / 118؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 34 - 35.

يستغيثون به ويستنصرونه وأذعنوا له بالطاعة، فسار اليهم، فلما عبر الفرات، سيطر في طريقه على مدينة منبج [1] وحصن بزاعة [2] وواصل المسير نحو حلب فالتقى بأهلها وفرحوا ورحبوا به فدخلها سنة (522هـ / 1128م) [3].

وعند إقامته بها قام بتنظيم أمورها وعمَّر ما دمره الصليبيين، وجعل عليها حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق لتنظيم امورها [4]، وذكر ابن الاثير فضل عماد الدين على بلاد الشام قائلًا: ((ولو لا ان الله تعالى منّ على المسلمين بملك أتابك ببلاد الشام لملكها الفرنج لأنهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية..)) [5]، وهذا يعني ان سيطرة عماد الدين على حلب كانت لها أهمية كبيرة في قطع الصلة وطرق الامداد الصليبي بين الرها وبقية الإمارات الصليبية في الشام.

بعد ذلك استمرت انتصارات عماد الدين زنكي في بلاد الشام، إذ سار الى مدينة حماه فدخلها في سنة (523هـ / 1128م) [6]، ثم قصد حصن الأثارب [7] وكان أهلها على اتصال بالصليبيين ويقاسمون الحلبيين على جميع أعمال حلب الغربية، فالتقوا مع عسكر عماد الدين بعد ان جمع الصليبيين رجالهم وفرسانهم نتيجة لحصار عماد الدين لذلك الحصن، فدارت المعارك بينهم وأنتصر المسلمون وانهزمت جموع الصليبيين اقبح هزيمة ووقع كثير من فرسانهم في الأسر وكثر القتل فيهم وأخذ عماد الدين الأثارب عنوة [8].

وقد واصل عماد الدين زحفه للسيطرة على مناطق أخرى وجاء الدور هذه المرة على مدينة حمص بعد ان

---

(1) منبج: مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة، بينها وبين حلب عشرة فراسخ (الفرسخ الواحد ما يقارب 6 كم، وعشرة فراسخ ما يقارب 60 كم)، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 5 / 206).

(2) بزاعة: بليدة في طرف وادي بطنان من أعمال حلب تقع بين منبج وحلب، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1 / 303).

(3) ابن الاثير، الكامل، 9 / 11؛ ابن الاثير، الباهر، 38؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 39؛ حسن، تاريخ الاسلام، 4 / 71؛ رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، 2 / 212.

(4) ابن الاثير، الكامل، 9 / 12؛ ابن الاثير، الباهر، 38؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 40.

(5) الكامل، 9 / 12.

(6) ابن الاثير، الباهر، 38؛ ابو شامة، الروضتين، 1 / 118؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 41؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، 2 / 416؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، 2 / 33.

(7) حصن الأثارب: وهي قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1 / 89)؛ ابن الاثير، الكامل، 9 / 22.

(8) ابن الاثير، الكامل، 9 / 23؛ ابو شامة، الروضتين، 1 / 118 - 119؛ ابن الوردي، تاريخ، 2 / 34؛ سبط ابن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، 1 / 198.

نازلها وحاصرها [1]، واستولى بعدها على بعلبك [2]، ثم رحل الى حصن حارم [3] فحاصره، فلم يتمكن من دخولها، لأن الاصابات والجراحات والقتل كان قد كثر في عسكره، فأراد أن يريح جنوده، فهادنهم ثم عاد عنهم واستدار المسلمون بتلك الأعمال، وضعفت قوى الصليبيين، وبذلك أيقن المسلمون بالشام الأمن وحلول النصر وسيرت البشائر الى البلاد جميعًا [4].

وعلى الرغم من الفتوحات التي أحرزها عماد الدين إلاّ أنه مبادر إلى السيطرة على دمشق منذ سنة (529هـ / 1134م)، لكنه لم يتمكن من دخول المدينة على الرغم من الحصار الشديد الذي فرضه عليها بسبب ما ورد اليه من رسول الخليفة المسترشد والذي امره بإقامة الصلح مع صاحب دمشق والرحيل عنها، فاستجاب عماد الدين لرغبة الخليفة وانسحب منها في السنة نفسها [5].

وأعاد عماد الدين حصار دمشق مرة ثانية في سنة (534هـ / 1139م)، الا انه لم يتمكن من دخولها ايضًا على أثر المقاومة الشديدة التي أبداها صاحب دمشق جمال الدين محمد بن طغتكين، وبعدها مرض جمال الدين ومات على اثرها، واراد عماد الدين ان يسيطر عليها مرة اخرى، الاّ أَن ابن صاحب دمشق مجير الدين أبق حل مكانه وتولى تدبير أمور دولته معين الدين أبق والذي اتفق مع الصليبيين واستدعاهم لنصرته من أجل منع عماد الدين من دخول دمشق، فخوفهم من عماد الدين إن سيطر على دمشق وقال لهم: ((وانه اذا ملكها لم يبق للصليبيين معه مقام لهم بالشام، فلما علم عماد الدين بهذا الاتفاق سار الى حوران بعدما رحل عن دمشق التي ظلت عصيّة عليه)) [6].

و لم يقف عماد الدين عند ذلك، بل واصل جهوده ومساعيه بشكل اكبر من أَجل السيطرة على كامل بلاد الشام، وتحقق له ذلك عندما نجح بفتح مدينة الرها سنة (539هـ / 1144م)، وأَخذها من الصليبيين [7]، وذلك

---

(1) ابو شامة، الروضتين، 1 / 118؛ اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقطان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، 3 / 175.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 85.

(3) حصن حارم: حصن حصين وكورة جليلة تجاه انطاكية وهي الآن من اعمال حلب، وهي حصينة منيعة على الاعداء كثيرة الشجر والماء، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 2 / 205).

(4) ابن الاثير، الكامل، 9 / 23؛ ابن الاثير، الباهر، 42؛ ابو شامة، الروضتين، 1 / 119.

(5) ابن الأثير، الكامل، 9 / 58 - 59؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 87.

(6) ابن الأثير، الكامل، 9 / 105 - 106؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 87 - 88؛ الذهبي، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، 11 / 532؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 16 / 316.

(7) ابن الأثير، الكامل، 9 / 131؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الاعيان، 20 / 349؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص206؛ ابن الوردي، تاريخ،2 / 44.

لأن شر الصليبيين كان قد عظَّم وعمَّ بلاد الجزيرة، ووصلت غاراتهم الى أدانيها وأقاصيها [1]، ثم تسلم مدينة سروج وسائر الأماكن والمدن التي كانت بيد الصليبيين شرقي الفرات [2]، وكان عماد الدين يعلم انه متى هاجم الصليبيين في الرها وسروج [3] والبيرة [4] وغيرها من المدن الاخرى التي كانت بيد الصليبيين، كان يصعب عليه السيطرة عليها بسبب حصانتها، وقد خدع عماد الدين الصليبيين عندما توجه نحو ديار بكر ليوهمهم أنه غير متفرغ لمواجهتهم، فاطمأنوا لذلك وخرج جوسلين [5]، من الرها عبر الفرات، فجاءت عيون عماد الدين اليه فأخبرته بذلك، فاجتمعت قواته قرب الرها، ففتحوها بعد حصار شديد دام ثمانية وعشرين يومًا [6]، وبذلك تحررت احدى أهم المراكز الصليبية التي أسسها الصليبيين في قلب الشرق الاسلامي الى جانب إمارة أنطاكية، وإمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس، وكان ذلك ايذانًا بتهاوي البناء الصليبي بأسره فيما بعد [7].

وبعد أن دخل عماد الدين وعسكره مدينة الرها أزال صلبانها وقتل شجعانها وفرسانها، وقد فرح المسلمون فرحًا شديدًا بفتح الرها، اذ وصف بالفتح العظيم، فقيل: ((لم ينتفع المسلمون بمثله، وطار في الآفاق ذكره، وطاب بها نشره، وسار به الرفاق، وامتلأت به المحافل في الآفاق، وشهده خلق كثير من الصالحين والاولياء، واستبشر به الأبرار والأصفياء)) [8].

وبعد أيام قلائل من حصاره قلعة جعبر، قتل عماد الدين في الخامس من ربيع الآخر ليلًا من سنة (541هـ / 1146م)، عندما وثب عليه ثلاثة من غلمانه فقتلوه وهو يحاصر قلعة جعبر [9]، وهربوا لداخل القلعة [1]، وكان

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 9 / 131؛ ابن واصل: مفرج الكروب، 1 / 93؛ أبو بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، 139.

(2) ابن الأثير، الكامل، 9 / 131؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 94.

(3) سروج: بلدة قريبة من حران من ديار مضر، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3 / 216).

(4) البيرة: بلدة بين حلب والثغور الشامية، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1 / 526).

(5) جوسلين: ويسمى جوسلين الثاني كونت الرها، خسر سيطرته على الرها بعدما فتحها عماد الدين زنكي (539هـ / 1144م)، وكان قد وقع في أسر نور الدين محمود الذي اتفق مع التركمان والذين ساعدوه في اسر جوسلين وبقي في الاسر حتى وفاته سنة (553هـ / 1159م). ابن الأثير، الكامل، 9 / 180 - 181؛ ابن الأثير، الباهر، 102.

(6) ابن الأثير، الكامل، 9 / 131 - 132؛ البنداري، تاريخ دولة آل سلجوق، 187؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 93 - 94.

(7) خليل، عماد الدين زنكي، 149؛ مؤنس، نور الدين محمود، 176.

(8) ابن الأثير، الباهر، 69.

(9) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 18 / 51؛ ابن الأثير، الكامل، 9 / 141؛ ابن الاثير، الباهر، 74؛ ابن المستوفي، تاريخ إربل، 1 / 705؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 98 - 99.

وكان من قتله هو صبي من غلمانه ومماليكه يدعى يرنقش فقتلوه في فراشه وكان في نفسه حقد عليه لإساءة من عماد الدين ليرنقش فأسرها في نفسه [2]، وليس بعيدًا أن يكون صاحب قلعة جعبر هو الذي حرض على قتله خصوصًا أنه هو الذي آواه وأكرمه بعد ذلك.

انقسمت الدولة الزنكية بعد وفاة عماد الدين إلى قسمين، شكّل كل منهما دولة منفصلة عن الاخرى، الاولى: في الجهة الشرقية وهي الموصل والتي تولاها الابن الاكبر سيف الدين غازي (541 - 544هـ / 1146 - 1149م)، والذي خلّف أباه في الحكم هناك، والثانية: في الجهة الغربية إذ تولاها ابنه الآخر نور الدين محمود (541 - 569هـ / 1146 - 1173م) ومقره في حلب [3].

وكان نور الدين محمود قد اخذ خاتم والده من يده وسار بها الى حلب فملكها واتفق مع صلاح الدين الياغسياني - صاحب حماة وحاجب عماد الدين زنكي (ت 552هـ / 1157م) - والوزير جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني [4] من اجل حفظ دولته والتي انتقلت الى حلب بعد مقتل ابيه [5].

ولا بد من الاشارة أن هناك كثيرون من سَمّى نور الدين محمود بالملك العادل و لم يسمّوه بالسلطان، لأن مصطلح السلطان يُطلق على من ملك إقليمين فصاعدًا، وإن كان لا يملك الاّ إقليمًا واحدًا سُميِّ بالملك، وإنّ اقتصر على مدينة واحدة فإنه يسمىَّ بأمير، ولذلك سمي بالملك نور الدين محمود [6].

توجّه نور الدين محمود بعد تنظيم امور دولته الى محاربة العصيان الصليبي، اذ توجه الى الرها سنة (541هـ / 1146م)، بعد قيام جوسلين أحد الامراء الصليبيين الذي كان صاحب الرها في ولايته غربي الفرات وهي تل

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 9 / 142؛ ابن الوردي، تاريخ، 2 / 45؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 5 / 279.

(2) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، 444؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 99.

(3) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، 1 / 146؛ الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، 475؛ طقوش، تاريخ الزنكيين، 10.

(4) واسمه الكامل ابو جعفر محمد بن علي بن ابي المنصور الاصفهاني والملقب بالجمال، وكان وزير صاحب الموصل قطب الدين مودود، وكان كثير الكفاءة، وخدم نور الدين محمود بأمور جليلة منها انه سلمه خاتم والده، وساعده في السيطرة على حلب، وعمل على حفظ دولته. ابن الأثير، الكامل، 9 / 144؛ أبو شامه، الروضتين، 1 / 426.

(5) ابن الأثير، الكامل، 9 / 144؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 107؛ ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية في السيرة النورية،4؛ الزركلي، الاعلام، 7 / 170.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب، 1 / 329؛ أبو شامة، الروضتين، 1 / 31؛ ابن الوردي، تاريخ، 2 / 18؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 5 / 315.

باشر [1] وما يجاورها، فراسل أهلها واكثرهم من الارمن ودعاهم الى العصيان على المسلمين وتسليم البلد فأجابوه لذلك فسيطر عليها، ولكنه لم يستطع الدخول الى القلعة التي عصت عليه لوجود المسلمين فيها فقاتلوه، وبلغ ذلك نور الدين وهو بحلب، فسار اليها بعساكره منجدًا لهم، وما أن اقترب منها حتى خرج جوسلين هاربًا الى بلده، ودخلها نور الدين في السنة نفسها [2].

وفي سنة (542هـ / 1147م) بدأ نور الدين محمود جهاده ضد الصليبيين فتّمكن من تحرير حصن أرتاح [3]، ودخلها عنوةً وأنهى الوجود الصليبي فيها [4]، كما تمكن من فتح عدة حصون اخرى، وأهمها كفرلاثا [5] و بسرفوث [6]، أما حصن حارم فقد سّيطر عليه سنة (544هـ / 1149م) [7]، وبذلك تمكن نور الدين محمود من طرد الصليبيين من ابرز الحصون والقلاع التي سيطروا عليها في وقت سابق.

واصل نور الدين محمود سياسة توحيد الجبهة الاسلامية في مناطق ومدن الشام وجمع عسكره وتوجه نحو شمال حلب قاصدًا قائد الصليبيين جوسلين في القلاع التي تحت سيطرته خصوصًا تل باشر وعين تاب [8]، واعزاز [9] وغيرها من القلاع الاخرى [10]، وكان جوسلين قد جمع الكثير من الصليبيين وسار الى نور الدين وهزمه، وأسر الكثير من المسلمين الى جانب سلاح دار [11]، نور الدين والكثير من الغنائم والاسلحة وأرسلها جوسلين الى

---

(1) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب وبينهما يومان (83 كم تقريبًا)، واهلها نصارى ارمن وهي عامرة آهلة، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 2 / 40).

(2) ابن الأثير، الكامل، 9 / 145؛ ابن الاثير، الباهر، 86؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 110 - 111.

(3) حصن أرتاح: حصن منيع، من اعمال حلب، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1 / 140).

(4) ابن الأثير، الكامل، 9 / 152؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 20 / 375؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 112؛ ابن العماد، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، 6 / 213.

(5) كفرلاثا: بلدة في سفح جبل من نواحي حلب بينهما يوم واحد (41،5 كم تقريبًا)، وهي ذات بساتين ومياه جارية، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 4 / 470).

(6) بسرفوث: حصن من اعمال حلب في جبال بني عليم، فتحه الملك العادل نور الدين محمود زنكي، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1 / 420).

(7) ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق وسر الخلائق، 145.

(8) عين تاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وانطاكية، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 4 / 176).

(9) اعزاز: بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب وبينهما يوم، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 4 / 118).

(10) ابن الأثير، الكامل، 9 / 180؛ ابن الاثير، الباهر، 101.

(11) سلاح دار: وهو لقب يطلق على الذي يحمل سلاح السلطان او الامير ويتولى أمر السلاح، وهو اسم مركب من لفظين: احدهما عربي وهو السلاح، والآخر فارسي وهو دار ومعناه ممسك، ويكون المعنى ممسك السلاح، ينظر: القلقشندي، صبح الاعشى في

الملك مسعود بن قلج أرسلان – سلطان سلاجقة الروم وصاحب قونية (509 – 550هـ / 1116 – 1156م) – وقال له: ((هذا سلاح زوج ابنتك، وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه)) [1]، وعَظُّم على نور الدين هذا الحال وأخذ يخطط لأسر جوسلين والتخلص منه، واتفق مع أُمراء التركمان وعرض عليهم الاقطاع والهبات والاموال إن أسروا أو قتلوا جوسلين [2].

لقد أرادَ نور الدين باتفاقه هذا مع التركمان التخلص من جوسلين، لأنه إنْ جمع جنوده جمع جوسلين جنوده الصليبيين ايضًا [3]، وما إن خرج جوسلين للصيد حتى أسره التركمان لكنّهُ عرض عليهم الأموال فوافقوا على إطلاق سراحه وأخفوا أمره عن نور الدين، إلا أن جماعة منهم أخبروا نائب نور الدين بحلب، فأخبره نائبه وهو بحمص، فجهَّز جيشه وتّمكن من أسره والدخول في قلاعه وحصونه المذكوره سابقًا، وكان من أعظم الفتوح، وبذلك تخلص نور الدين من أشرس أعدائه خصوصًا والكثير من المصادر وصفته بإنه كان ((شيطانًا عاتيًا، شديدًا على المسلمين، قاسي القلب وبأسره أصيبت النصرانية كافة بمصيبة عظيمة)) [4].

وواصل نور الدين تحركاته فسيَّطر على حصن شيزر بالقرب من حماه في سنة (552هـ /1157م)، وكانت لآل منقذ الكنانيين، وسبب سيطرة نور الدين عليها هو خوفه من ان يسلمها صاحبها سلطان بن علي الى الصليبيين بعد أن تفرقت كلمتهم بسبب الصراع بين أبناء الأسرة، فقصدهم نور الدين وسيّطر على الحصن وأعاد بناء أسوارها ودورها بعد أن ضربها زلزال شديد [5]، وفي السنة نفسها سيطر نورالدين على قلعة بعلبك والتي كانت بيد ضحاك البقاعي بعد ان ولاه عليها صاحب دمشق نجم الدين ايوب بن شاذي [6]، وقد امتنع بها ضحّاك والذي كاد أن يسلمها للصليبيين بسبب قربها منهم لولا تلطف نور الدين معه ليتسلم القلعة فيما بعد [7].

صناعة الإنشاء، 5 / 434.

(1) ابن الأثير، الكامل، 9 / 180؛ ابن الاثير، الباهر، 101 – 102.

(2) ابن الأثير، الكامل، 9 / 180؛ ابن الاثير، الباهر، 102؛ ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية،4.

(3) ابن الأثير، الكامل، 9 / 180؛ ابن الاثير، الباهر، 102؛ ابو شامة، الروضتين، 1 / 246.

(4) ابن الأثير، الكامل، 9 / 181؛ ابن الاثير، الباهر، 102؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 20 / 388؛ ابو شامة، الروضتين، 1 / 247؛ ابن العبري تاريخ مختصر الدول، 208.

(5) ابن منقذ، الاعتبار، 34 – 36، 186؛ ابن الأثير، الكامل، 9 / 238 – 239؛ ابن الاثير، الباهر، 110 – 112؛ سبط ان الجوزي، مرآة الزمان، 20 / 473. الذهبي، تاريخ الاسلام، 36 / 207.

(6) نجم الدين ايوب بن شاذي: وهو اكبر ابناء شاذي، من بلد دوين وهي بلدة من آخر بلاد اذربيجان مما يلي الروم، واصله من الاكراد الروادية، وقدما هو وابوه الى تكريت لخدمة مجاهد الدين في شِحنة العراق، فرأى من نجم الدين عقلًا ورأيًا وحسن سيرة، وانتقل بعد ذلك الى الشام ودخل في خدمة الدولة الزنكية. ابو شامة، الروضتين، 1 / 303 – 305.

(7) ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 128 – 129؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 16 / 373.

العلاقة بين نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وجهودهما في ضم مصر:

أخذ نور الدين يتطلع الى أن يمد سلطانه الى مصر ـــــ وبها الفاطميين ـــــ لتمتد الجبهة الاسلامية الموحّدة من الفرات الى النيل [1]، لمواجهة الغزو الصليبي معًا، إلا أنَّ أوضاع مصر الداخلية كانت في فوضى وصراع، منقسم على منصب الوزارة بين الوزيرين ضرغام [2] وشاور[3].

ففي سنة (558هـ / 1163م) صار ضرغام وزيرًا للعاضد لدين الله الفاطمي (555 - 567هـ / 1160 - 1171م) صاحب مصر بدلًا من شاور الذي عزل من منصبه بعد أن جمع ضرغام جموعه الكثيرة وتغلب على شاور وشغل الوزارة في مصر [4].

فلما قهر شاور وأبعد من الوزارة وأُخرّج من القاهرة، توجه الى بلاد الشام سنة (559هـ / 1163م)، لطلب المساعدة من نور الدين محمود مستنجدًا به من أجل إعادته الى منصب الوزارة في مصر، مقابل أن يعطي لنور الدين ثلث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر [5]، وتردد نور الدين محمود كثيرًا في إنجاده وإرسال حملة عسكرية الى مصر لعدة أسباب: أهمها خوفه على جنوده من خطر الطريق بسبب توسّط الصليبيين بينه وبين مصر، أو أَنْ لا يفي شاور بوعده له إنْ استقر بالوزارة، ولكنه كان يرغب في إنجاد شاور أيضًا من أجل توسيع سيطرته لتصل إلى الديار المصرية وحرمانها من الصليبيين [6].

وافق بعد ذلك على إرسال حملة عسكرية الى مصر تحت قيادة أسد الدين شيركوه في السنة نفسها، وسار شيركوه بالعساكر ومعه صلاح الدين واصطحبوا شاور أيضًا، أما نور الدين فقد سار بجنوده الى أطراف دمشق ليشّغل الصليبيين ويمنعهم من التعرض لأسد الدين ومن معه [7]، وحاول ضرغام الفرار لكنه قتل من قبل العامة سنة (559هـ / 1164م)، وعاد شاور الى الوزارة وطمع في البلاد ولم يف بوعده لنور الدين، وطلب من أسد

---

(1) عاشور، مصر والشام، 8.

(2) ضرغام: هو ضرغام بن عامر اللخمي ومنافس شاور على الوزارة واستعان بأموري الصليبي ملك بيت المقدس ضد خصمه واستطاع اسد الدين شيركوه ان يهزمه وطرده إلى القاهرة حيث قتله العامة هناك. ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين الأيوبي، 63.

(3) شاور: هو شاور بن مجير السعدي وكان شهمًا شجاعًا وقتل العادل رزيك طلائع وزير العاضد، وقتل بأمر من اسد الدين شيركوه سنة (564هـ / 1168م). ابن شداد، النوادر السلطانية، 63.

(4) ابن الأثير، الكامل، 9 / 298 - 299؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، 63؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 137.

(5) ابن الأثير، الكامل، 9 / 305؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، 64؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 13.

(6) ابن الأثير، الكامل، 9 / 305؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 138.

(7) ابن الأثير، الكامل، 9 / 305 - 306؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، 64؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 138 - 139.

الدين المغادرة، لكنه رفض وسيطر على مدينة بلبيس [1]، واستعان شاور بالصليبيين وخوّفهم من سيطرة نور الدين على مصر فأنجدوه، فأرسل نور الدين حملة ثانية الى مصر سنة (562هـ / 1168م) استطاعت أن تحرز النصر على الصليبيين ومعهم الوزير شاور[2]، وفي سنة (564هـ / 1168م) أرسل نور الدين محمود حملة عسكرية ثالثة الى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الذي لم يرغب في السير نحو مصر بقوله: ((كنت اكره الناس للخروج في هذه الواقعة وما خرجت مع عمي باختياري)) [3]، وهذا ينطبق مع قوله تعالى: [وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ] [4].

كما إن ذلك سيكون لهُ شأن كبير فيما بعد، والهدف هو الدفاع عن مصر وطرد الصليبيين من أرضها لا سيما بعد أن قُوَّي الجانب الصليبي واستجاد الخليفة العاضد الفاطمي [5]، الذي ارسل اليهِ في الكتب شعور النساء وقال لهُ: ((هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهم من الفرنج)) [6]، وهذا دليل على ان نور الدين زنكي كان قويًا في هذه المدة من خلال استنجاد أكثر الأطراف المتصارعة به.

وبعد وصولهم أرض مصر التي أحرقها شاور، نزلوا عند الخليفة العاضد الذي عيّن أسد الدين على الوزارة، إذ قبض صلاح الدين الأيوبي وعز الدين جرديك ــ أحد مماليك نور الدين زنكي ــ على شاور فعلم أسد الدين والعاضد بالأمر الذي طلب منه رأس شاور تماشيًا في عادتهم، ثم حزّت رقبته وأرسل اليه [7]، ثم عيّن الخليفة العاضد أسد الدين وزيرًا لهُ ولقبه (الملك المنصور امير الجيوش)، فدخل القصر الذي كان لشاور واستقر فيه الى أنْ توفي في السنة نفسها فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام، وتولى بعده الوزارة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي [8].

---

(1) بلبيس: احدى مدن مصر، بينها وبين الفسطاط عشرة فراسخ، وتقع على طريق الشام، ينظر: (ياقوت الحموي ، معجم البلدان، 1 / 479).

(2) ابن الأثير، الكامل، 9 / 306؛ ابن الاثير، الباهر، 120 - 121؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، 64 - 65؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 148 - 149.

(3) ابن شداد، النوادر السلطانية، 67؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، 3 / 294 - 295.

(4) سورة البقرة: جزء من الآية 216.

(5) الحنبلي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، 1 / 310.

(6) ابن الأثير، الكامل، 9 / 337؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، 2 / 4؛ المؤرخ، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والاخبار، 1 / 26.

(7) ابن الأثير، الكامل، 9 / 341؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، 68؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 157 - 167؛ الذهبي، العبر، 3 / 42؛ ابن الوردي، تاريخ، 2 / 73؛ اليافعي، مرآة الجنان، 3 / 281.

(8) ابن حماد، اخبار ملوك بني عبيد وسيرهم، 108؛ ابن الأثير، الكامل، 9 / 342؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، 69؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 165 - 168.

وبعد أن حقق نور الدين الكثير من النجاحات في بلاد الشام وتثبيت قدمه في مصر، فكّر في الغاء الخلافة الفاطمية وإعلان الخلافة العباسية في الديار المصرية، فكتب نور الدين الى القائد صلاح الدين الايوبي يأمره فيها بقطع الخطبة للخليفة العاضد الفاطمي واعلان الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بالله (566 - 575هـ / 1170 - 1179م)، وذلك في سنة (567هـ / 1171م) وكانت الظروف مهيئة لذلك، بحكم المكانة التي حُظيَّ بها صلاح الدين في مصر [1]، إلا أَنَّ السلطان صلاح الدين اعتذر عن ذلك خوفًا من قيام أهل مصر ضده بسبب ميلهم إلى الفاطميين [2].

ولكن نور الدين زنكي أصّر علية بقطع خطبتهِ فامتثل له صلاح الدين، وكان قد قدم الى مصر رجل أعجمي يعرف بـ (الأمير العالم)، وقيل أنه أول من تقدم بالخطبة للعباسيين، وقال: ((أنا ابتدئ بالخطبة لهم)) [3]، وكان أول يوم جمعة من شهر محرم قد صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للخليفة المستضيء بالله فلم يعترض عليه أحد، فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر أن يقطعوا خطبة العاضد ويخطبوا للمستضيء، والذي أصبح بعد ذلك أمرًا عاديًا في كافة أرجاء مصر، وقد صادف ذلك مرض الخليفة العاضد الفاطمي والذي مات على إثرها في يوم عاشوراء دون أن يعلمهُ أهلهُ بهذا الأمر، وقالوا: ((إن عوفيَّ فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أنْ نفجعهُ بمثلِ هذه الحادثة قبل موتهِ، فتوفي ولم يعلم بقطع الخطبة)) [4]، فوصلت البشائر الى بغداد التي فرحت أيامًا وأغلقت أسواقها وسيّرت السواد فيها وفرح عامة المسلمين [5].

وما أنْ تمكن نور الدين محمود من إنهاء الخلافة الفاطمية جُمّعتْ بلاد الشام ومصر والجزيرة تحت سيّطرته وأصبحت جبهة إسلامية موحّدة وكان هذا هدف نور الدين محمود منذ زمن بعيد.

وبعد أن عُين صلاح الدين نائبًا لنور الدين زنكي في مصر في سنة (567هـ / 1171م)، توترت العلاقة بينهما قليلًا، لأن صلاح الدين باعتباره قائدًا لدى نور الدين ولا يتحرك الا بإذنهِ، فقد توجه نحو مناطق وجود الصليبيين فحاصر قلعة الشوبك [6]، فلما علم نور الدين بذلك توجه هو الآخر لقتال الصليبيين من جهة اخرى، فقيل

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 9 / 364؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص74؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 200؛ الذهبي، العبر، 3 / 49.

(2) ابن الأثير، الكامل، 9 / 364؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 200.

(3) ابن الأثير، الكامل، 9 / 365؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 200.

(4) ابن الأثير، الكامل، 9 / 365؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 200 ــ 201.

(5) الذهبي، العبر، 3 / 49؛ ابن الوردي، تاريخ، 2 / 78؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 16 / 450.

(6) الشوبك: قلعة حصينة في اطراف الشام بين أيلة وعمّان والقلزم قرب الكرك، ينظر: (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3 / 370).

لصلاح الدين: ((إن دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال: انت من جانب ونور الدين من جانب ملكها، ومتى زال الفرنج عن الطريق واخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين وان جاء نور الدين اليك وانت ها هنا فلا بد لك من الاجتماع به، وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء، وإن شاء تركك، وإن شاء عزلك، فقد لا تقد على الامتناع عليه، والمصلحة الرجوع الى مصر)) [1]، فرجع صلاح الدين الى مصر وابلغ نور الدين بذلك واعتذر لهُ بحجة اضطراب الأوضاع في مصر، بسبب خوفه من خروج بعض الفاطميين والامتناع بها فتخرج من سيطرته، لكنَّ رفض الاعتذار وأصرّ على إخراج صلاح الدين من مصر [2].

ولما علم صلاح الدين بالخبر، جمع اهلهُ وكان فيهم والده نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارمي وعدد من الامراء لكي يستشيرهم فلم يجبه احد، فقام ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين وقال: ((إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد)) [3]، فوافقه بعض أهلهِ، فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك، وقال لصلاح الدين: ((أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن اكثر محبة لك من جميع ما ترى، ووالله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين، لم يمكننا الا أن نقبّلَ الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإن كنا نحن كذلك فما ظنك بغيرنا ؟ وكلٌّ من تراه من عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك، سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتابًا مع نجّاج أحد المواليـــ

تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد، فأي حاجة الى هذا ؟ يرسل المولى نجاجًا يضع في رقبتي منديلًا ويأخذني اليك، وما ها هنا من يمتنع عليك)) [4].

وعندما تفرق اهله واصحابه وخلا به ابوه حتى قال لصلاح الدين: ((بأي عقلٍ فعلت هذا ؟ أما تعلم ان نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جَعَلَنا اهم الوجوه اليه، وحينئذٍ لا تقوى به، وأما إذ يبلغهُ ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا، والأقدار تعمل عملها، ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل)) [5].

فأخذ صلاح الدين بنصيحة والده، واعتذر لنور الدين، وارسل اليه الكثير من الهدايا، فقبل اعتذاره الى حين [6]، وفي سنة (569هـ / 1173م) عزم نور الدين محمود على تجهيز جيشهِ والسير نحو مصر لأخذها من صلاح

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 9 / 367؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 221 ــ 222.

(2) ابن الأثير، الكامل، 9 / 367 - 368؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 222.

(3) ابن الأثير، الكامل، 9 / 368؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 222.

(4) ابن الأثير، الكامل، 9 / 368؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 222.

(5) ابن الأثير، الكامل، 9 / 368؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 223.

(6) ابن الأثير، الكامل، 9 / 368؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 225 ــ 226.

الدين الأيوبي بسبب تقصيره في قتال الصليبيين، فأرسل نور الدين الى الموصل والجزيرة وديار بكر يطلب منهم العساكر لغرض تركها في الشام كحامية عسكرية إذا ما تعرض لهجوم من الصليبيين، ويسير هو بعسكره الى مصر، فعاقه قدره المحتوم و لم يتم له ذلك بسبب وفاته في السنة ذاتها [1]، وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته ــ داء يعسر معه دخول النفس الى الرئة ــ عجز الأطباء عن علاجه، وتوفي يوم الأربعاء في الحادي والعشرين من شوال ودفن في قلعة دمشق ثم نقل الى المدرسة النورية الكبرى التي أنشأها سنة (563هـ / 1167م) بدمشق عند سوق الخواصين فدفن رحمه الله فيها [2].

وبوفاة نور الدين محمود زنكي فقد المسلمون بطلًا من ابطالهم الذي لطالما كان شوكة في وجه الصليبيين استطاع من خلال حكمهِ ان يسيطر على الكثير من قلاعهم وحصونهم وأن يوحَّد الجبهة الإسلامية في بلاد الشام ومصر والجزيرة، وبوفاته ايضًا فرح الصليبيون وتهيئوا للسيطرة على الشام كونهم لم يتجرؤوا على مهاجمتها عندما كان نور الدين محمود حيًا، ويبدوا لنا أن وفاة نور الدين محمود زنكي هو البداية الفعلية لنهاية الدولة الزنكية في بلاد الشام، لكنها بقيت من الناحية الشكلية فقط، فقيل في ملكه: ((وكان قد ملك الشام والجزيرة ومصر واليمن وأطاعه أصحاب ديار بكر وخطب له بالحرمين الشريفين ــ مكة المكرمة والمدينة المنورة ــ وطبَّق الأرض ذكره بحسن سيرته وعدله وتقواه ــ رحمه الله)) [3].

وبعد وفاة نور الدين محمود سنة (569هـ / 1173م) تولى السلطة ابنه الملك الصالح إسماعيل (558 ـــ 577هـ / 1162 - 1181م) وعمره أحدى عشر سنة وبوّيع له في سائر البلاد، وحلّف له الناس والامراء والقادة في دمشق، فضلًا عن مبايعة صلاح الدين له وهو بمصر وخطبّ له وضرب السكة باسمه فيها، كما تولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبدالملك المعروف بابن المقدم (ت 583هـ / 1187م) وصار مدّبر دولته [4].

اختلفت موازين القوى بعد أن تولى الملك الصالح الحكم، فقد جمّع الصليبيين جموعهم وتوجهوا نحو بانياس [5]، فحاصروها، إلا أن شمس الدين ابن المقدم جمع عساكره وسار اليهم فراسلهم وخوَّفهم بقصد صلاح الدين لقتالهم فصالحوه بشرط أنْ يدفعوا لهم المال ويطلقوا سراح الأسرى، وبذلك تقررت الهدنة [6].

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 9 / 393؛ الباهر، 161؛ ابو شامة، الروضتين، 2 / 310؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 1 / 258.

(2) ابن الأثير، الكامل، 9 / 393؛ الباهر، 161؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، 78؛ ابو شامة، الروضتين، 1 / 262.

(3) ابن الاثير، الباهر، 162؛ ابو شامة، الروضتين، 2 / 312.

(4) ابن الأثير، الكامل، 9 / 395 - 396؛ ابن الاثير، الباهر، ص162؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص78؛ ابو شامة، الروضتين، 2 / 317 - 318؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 2 / 1 - 3؛ ابن الوردي، تاريخ، 82؛ كرد علي، خطط الشام، 2 / 45.

(5) بانياس: قلعة من اعمال دمشق، ينظر: ابن الأثير، الكامل، 9 / 398.

(6) ابن الأثير، الكامل، 9 / 398؛ ابو شامة، الروضتين، 2 / 322؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 2 / 7؛ الذهبي، العبر، 3 / 55.

وهكذا فقد واصل السلطان صلاح الدين الأيوبي بسط نفوذه على بلاد الشام حتى وفاة الملك الصالح إسماعيل سنة (577هـ / 1181م)، والذي أوصى بتسليم البلاد لأبن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي (576 ـــ 589هـ / 1180 - 1193م)، بالرغم من نصيحة الأمراء له بان يوصي بالسلطنة لأبن عمه الآخر وزوج أُخته عماد الدين زنكي الثاني [1]، فأرسل الأمراء تنفيذًا لوصية الملك الى عز الدين مسعود ويستدعونه للقدوم الى حلب فسار هو ونائبه مجاهد الدين قايماز، وعندما علم صلاح الدين بالأمر وهو بمصر قرر المسير الى الشام في سنة (578ه / 1182م)، وبذلك استطاع أنْ يَفرض سيّطرته على كامل بلاد الشام وأصبح ملكًا عليها [2]، وبهذا يمكن القول بانتهاء الدولة الزنكية وابتداء دولة جديدة وهي الدولة الايوبية.

الخاتمة:

وخرجت هذه الدراسة بالنتائج الآتية:

1 ــ تكن أهمية الدولة الزنكية في الدور الكبير والمهم الذي أدّاه أُمراؤها على مسرح أحداث الشرق الأدنى الإسلامي في مرحلة من أشد مراحل التاريخ الاسلامي خطورة.

2 ــ تجسيد الملك العادل نور الدين محمود زنكي كمؤسس حقيقي للدولة الزنكية، بعفل فتوحاته الكثيرة وجهوده العظيمة في توحيد الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين والتي تمثلت في كل من بلاد الشام ومصر والجزيرة.

3 ــ ظهور السلطان صلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث السياسية، وبروزه كقائد لدى نور الدين زنكي نجح في جميع المهمات التي أُوكلت لهُ، ومنها نجاحهِ في القضاء على الخلافة الفاطمية وارجاع الخطبة للخلافة العباسية وضرب السكة باسم الخليفة العباسي المستضيء.

4 ــ لم تخلوا العلاقة بين نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي من بعض المشاكل، والتي حاول البعض المزايدة عليها وإظهار الجوانب الخلافية بينهما، لكن الحقيقة ان صلاح الدين كان القائد الذي لا يخرج عن طاعة نور الدين محمود ابدًا، على الرغم من أن صلاح الدين كان قد رجع الى مصر عند محارصة قلعة الشوبك عند مدينة الكرك دون أن يكترث لأمر ملكه نور الدين زنكي، لكنه عاد واعتذر لنور الدين وارسل اليه الكثير من الهدايا، فقبل نور الدين اعتذاره.

5 ــ ومن الجدير بالذكر إن ما قام به الملك العادل نور الدين محمود زنكي والقائد صلاح الدين الأيوبي من

---

(1) ابن الأثير، الكامل، 9 / 410؛ ابن الاثير، الباهر، 181 - 182؛ 91 - 92؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 2 / 106 - 107؛ الذهبي، العبر، 3 / 73.

(2) ابن الأثير، الكامل، 9 / 455؛ ابن الاثير، الباهر، 182؛ ابن واصل، مفرج الكروب، 2 / 108؛ الذهبي، العبر، 3 / 73.

فتوحات عظيمة على مستوى بلاد الشام والجزيرة ومصر جسدت الدولة الزنكية في عهد نور الدين محمود زنكي، والدولة الأيوبية في عهد صلاح الدين الأيوبي كقوة عظيمة قارعت الدولة الفاطمية من جهة، والقوى الصليبية من جهة اخرى.